نسمات الأدب
العائد إلى ليلى
عبد الباسط محمد قندوزي

العائد الى ليلى

عبد الباسط محمد قندوزي

تستعرض لكم دار نسمات الأدب للنشر

الإلكتروني بعزيمة وإبداع جديد

الكتاب : اسكربيت

المؤلف: عبد الباسط محمد قندوزي

غلاف الكتاب: منى وجيه

موك اب الكتاب:سها منصور

تنسيق داخلي:جيهان سمير

إدارة الدار: رزان محمد كليب

مع نسمات الأدب، أفكارك تنبض بالحياة!

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

الإهداء

إلى كلّ نفس تعزف أوتارها...

إلـــى كـــلّ العصـــافير التـــي لا تـــودّ أن تهجـــر أوكارها...

وإلـــى كـــلّ الـــذّوات التـــي تحمـــل فـــي ســـجايا النّفس أوزاها...

وإلـــى كـــلّ انســـان نـــابض تســـكن روحـــه موسيقى حياة لا تغادر ديارها

عبدالباسط محمّد قندوزي

تقديم

ليلى فتاة حالمة، تتدفّق من عينها نظرات صافية، لا تملك في القلب ذرّة خائنة، رأت في الرّجل صوت صدى ينبض صدقا، فكتبت في أعماق أعماقها مشاعر لا تقدر على كبح جماحها. وكذلك الرّجل رأى في دخيلاء النّفس صورة عاشقة في ثوب ملائكة، فطافت الرّوح تبحث عن رديفها، وبحثت عن طوق نجاتها في ثنايا روحها المرحة. تعانقت الأرواح فألّفت بأقلامها قصّة عاشقين أنبتا زهرة في الأحشاء تنتظر ولادة. سافرت به الدّروب حيث عشقه الثّاني أين الوطن أين حبّات الرّمل المتناثرة، أين صوت الرّصاص يردع كلّ

متسلّل قد يفسد صفاء مكان ينبض حرّية. اختار من بين كوكبة الرّجال رفيقا فجعله توأم الأسرار حتّى لاحت في وجهه ملامح غادرة، لقد رماه في زنزانة عفنة أقفالها عنيدة، ومنافذها مغلقة. ظلّت الزّهرة وحيدة فقد أعلموها أنّ روحها قد غادرت دون رجعة، إنّها هناك في الأعلى، عند السّحاب عند تلك النّجمة الآفلة. لكنّها وفية، وهبت قلبها لتلك النّجمة، فجعلتها رديفة عاشق استهواه الرّحيل باكرا.

تلاطمت أمواج الحياة بهما فأذتهما، لكنّ بالوجدان تسكن روح نابضة لا تستسلم لعناد أقفال أكلها الصّدأ، فراحت تقلّب الأمور في الذّهن حتّى لاح في الأفق

ظـلام وفـي الظّلمـة بقعـة مـن النّـور مشـعّة. هـو الخـلاص آت يرسـم لقـاء لـيس بالبعيـد بعـد أن نـزع مـن وجـه رفيقـه تلـك الأقنعـة النّاعمـة، فبـدأت الرّحلـة تنسـج خيـوط حكايـة لـذوات ثـائرة تنـتفض مـن تحـت الغبـار معلنـة حيـاة جديـدة تنهـي مكائـد المكـر مـن لـدن ذات غـادرة. إنّهـا تنتظـر... وهو هناك يصارع كي يبقى...

عبدالباسط محمّد قندوزي

جدران حجارتها صلبة، وقضبان النافذة عنيدة لا تُكسر، وكذا أقفال الباب محكمة لا تُفتح، من هناك يقف السجّان ينتظر انبلاج الصباح، لكنّ السّجين نسي الشمس وأشعّتها، والسّماء وزرقتها. يشتمّ بقايا سجائر محشوة بالموت المؤجّل، لقد خلط العتمة بالعتمة بكحل سواد المكان. أكثر عدّ أيام العمر حتى أضاع الحساب، فطوى صفحة كتابه الممزّق القديم وأمسك عن الكلام. به علامات شقاوة، وفيه ندب كثيرة.

بدت ملامحه تتغيّر حتى تبدّلت حاله، فقد أضحى شيخا يعاند زمانه. لا ينهض من مكانه إلا قليلا، عشق العزلة التي ورثها من زنزانته، ووهب نفسه لتلك الجدران

فحـــرّك جمودهـــا وتصـــلّبها، خدشـــها وكتـــب عليهـــا كلماتـــه الحـــائرة، ورســـم عليهـــا طلاســـم. قطـــع مـــن كلمـــات منفـــردة، وعلامـــات داخـــل أشـــكال معلومـــة لكنهـــا تحمـــل ســـرّا، أرقـــام تتـــواتر وكأنهـــا تكتـــب عمـــرا، وصـــورة وجـــوه نكـــرة بهـــا طبقـــات وكأنهـــا أقنعـــة. أيـــاد متخاصـــمة، وشـــظايا أعيـــرة تصـــيب اســـمنت الزنزانـــة فتقتلـــع بعضه بشدّة .

ينفـــتح البـــاب فـــإذ ببقعـــة نـــور تنبعـــث مـــن بـــين شـــقوق صـــغيرة، يُطـــلّ زائـــر بوجـــه يـــذكّره بمـــاض تليـــد، انـــه ذاك الســـجّان رفيـــق البـــدايات. كـــان فتيـــا لـــيس كمثـــل يومـــه هـــرم. تبسّـــم ورفـــع قبّعتـــه مـــن فـــوق رأســـه. غـــزاه الشّـــيب حتـــى لاح فـــي شـــعره بعـــض

السّـــواد. لقـــد علـــم مـــن يكـــون. يصـــرف وجهـــه عنـــه كعادتـــه القديمـــة لكـــن صـــاحبه يعانـــد ويشاكســـه فيســـأل ســـؤاله القـــديم عـــن ذنـــب لـــم يعتـــرف بـــه. ينصـــرف الزّائـــر وهـــو يـــودّع الشّـــيخ السّـــجين وعلـــى شـــفتيه ابتســـامة خبيثـــة، لقـــد كـــان الشّـــاهد علـــى حكايتـــه منـــذ أن سُـــجن. هـــو شـــيء مـــن شـــبابه، ومـــرآة تعكـــس مســـيرته الطويلـــة فـــي هـــذه القلعـــة الحصـــينة ذات الأســـوار الشـــاهقة، هـــو لا يختلـــف كثيـــرا عنـــه، بـــدوره ســـجين غيـــر أنّ فـــارق التّوقيـــت قـــد تبدّل .

نهـــض مـــن مكانـــه وســـار نحـــو البـــاب الـــذي ظـــلّ مفتوحـــا، فســـحبه إليـــه وأغلـــق الغرفـــة، ثـــم رجـــع إلـــى ركنـــه الـــذي اعتـــاد الجلـــوس

فيه فلبسه وألفه ونحت جسده. تمدّد ونظر إلى الأعلى وغرق في ذكرياته.

طافت به كيانات كثيرة، وسمعت أذنيه كلام مختلف. جذبته السنون إلى زمن الفتوّة والشباب، شاب عشريني من دون عائلة. نزل وسط حيّ عتيق ليجاور شيخا صحبة ابنته الفاتنة، إنّها ساحرة آسرة لها مشية مثل نغمات عابرة تلطّف الجوّ فتزيده نقاوة. يراها فيسعد وكذا هي، ترقبه من بعيد وهي تلاطف خصلات شعرها برفق. ينتظر خروج الشّيخ ليجالسها. عشقها وتبع ظلّها، فصارت مثل توأم الرّوح تتنفّسه ويتنفّسها. أضحى على هيئة راوٍ يحكي حكاية، ويسرد أحداثها جهرا، كان يجهر

بحبّه الكامن، ويفصح عن خبايا القلب المسكون برغبة أن يسقط أسيرا في يدي فاتنة لا تمانع.

إنها لحظات الاعتراف. جوّ ممطر، وغيوم تتلبّد، ورعد يدوّي، وبرق يقصف فيضيء الكون من مشرقه إلى مغربه. يحادثها قائلاً:

-هل لي بكلمة.

-" كلمة دون سواها."

-قد أضيف إليها.

-"لا... لا تزد عليها."

-فإن كانت ثقيلة؟

-"تحملها وترحل."

-وإن هي خفيفة؟

-"أحملها وأدنو."

-أعشقك.

تبتسم لكنها تسرع خطاها فتدخل منزلها.

يظلّ مكانه، في العراء عند قطرات المطر، أعجبه إيقاعها، ولانت جوارحه،وطربت أهواء النّفس فعشق الحلم. إنها عروسه، مليكته، لقد تبسّمت وهذا يكفي ليقضم شطر ليله بين غفوة وصحوة يعدّ الأنجم. أيّ جرأة، لقد فعلها وفكّ وثاق لسانه ليعترف وإنّه لمدرك لغايته. لم يرتّب كلماته ولا مطلع مقاله،ولم يتردّد، لم يتلعثم ولم يرتبك، بل خرجت كلمته مفردة منفردة، فبدت مثل حبّات عناقيد على هيئة سلسة يكاد يشعر بعذوبتها. هي أنشودة من كلمة،

مطلعهـــا مفـــردة، ينطقهـــا فتنســـج بدايـــة طريـــق طويلـــة. لكنهـــا روايـــة هـــو كاتبهـــا وهـــو بطلهـــا والـــرّاوي داخلهـــا، لا يـــدري خاتمتهـــا، لكنهـــا تخـــطّ أولـــى أحـــداثها التـــي رســـمتها أعـــين تـــدّعي الخجـــل، وروح تتمنّـــع وهـــي علـــى يقـــين أنهـــا راغبـــة. لقـــد نالـــت منـــه المطـــر غيـــر أنـــه يـــرى نفســـه توّاقـــة لأن تكـــون ســـنبلة علـــى ســـفوح خضـــراء أو ســـهول منبســـطة ممتـــدّة، تغـــرق حينـــا فـــي ســـيل مـــدرار، وتتمايـــل راقصـــة عنـــد قطـــرات متدفّقـــة تصـــحبها نســـمات خفيفة ظريفة مثل عيني ساحرة حالمة .

-هل سحرتها؟ (حدّث فقال)

-لكنـــي هـــا أنـــا أقـــف عنـــد ناصـــية طريـــق بـــين ضـــوء وعتمـــة، وهـــي داخـــل قصـــرها

الصّغير أين مخدعها. لعلّها سحرتني!
نعم هي ساحرة بارعة، ففي أعماقي شيء غريب أيقظ مضجعي، وزاد في لهيب روحي كما نار لاذعة لكنها دافئة، حارقة غير أنها حنون بها عقار يشفي الجرح، تلتهب أشواقي وإني لست عليها بالمسيطر، نعم سحرتني فأنبتت في جوفي رقّة بعد غلظة، وطوّقت فكري لأظلّ حيث أنا، كأنّ بصوت يكرّر صدى نفسي فأنشد وأصرخ، وأغنّي وأنوح.
هي تغريدة عقب ليل ساكن حتما ستُسمع ذاك الشيخ فتفضح ما أنا عنه متستّر .
-سأرحل أين مسكني لعلّ في المكان أطياف من الجنّ تسحبني إلى حيث الخديعة .

يتزحزح قليلا ويحرّك ساقيه حتّى يصل إلى بيته وهو يترنّخ. يشعل شمعة بدل النور، وينزع عنه تلك الثّياب المبتلّة الباكية، ثم يتناول سيجارته ويدخّنها بشراهة ففي الغد بداية رحلة، غدا يلاقي رفقة جديدة .

تعصف به الأحلام والذّكريات، فيواصل في سبات يريده ليسترجع فواصل من العمر. اقتادته ذاكرته إلى تلك اللّيالي الباردة الموحشة، بدت على الشّيخ ملامح الكبر والتّعب، والفاتنة ليلى تحمل أعباء البيت بمفردها، وهو هناك يحاور نفسه إن كان الوقت قد حان كي يكسر طوق الصّمت ويطلبها عروسا له، يحسم أمره بعد أن طاف بالمنزل مرّات نسيَ

عـــدّها، أشـــواط بـــين روح وعـــودة، يـــرى فيهـــا حالـــه بـــين أعـــزب مغتـــرب ومتـــزوّج يختـــار مـــن بقـــاع الأرض هـــذه البقعـــة الصـــغيرة. لا يشـــعر بـــالبرد الشـــديد! قـــد يكـــون فعـــل الســـجائر هـــو مـــا أوقـــد نـــار غطّـــت مســـاحات بـــاردة داخلـــه. يرتـــدي خفيـــف الثّيـــاب، ويمســـك بيمينـــه ســـيجارة، وبيُســـراه مسدّســـه الـــوظيفي وكأنّـــه يرغـــب فـــي اصـــطياد طريدتـــه التـــي ألـــف قـــدومها متأخّرة ...

طـــوى ورقتـــه البيضـــاء بعـــد أن كتـــب عليهـــا كلمـــة بـــدت بـــدورها يتيمـــة غيـــر أنّهـــا متبوعـــة بـــثلاث نقـــاط، تركهـــا مفتوحـــة قصـــدا. لقـــد كتـــب كلمـــة "زواج..." فـــاكتفى وســـلّم واســـتراح مـــن عـــبء الوقـــوف،

وطواها حتّى بدت مثل رسالة مراهق يعتلي عرش عشقه للوهلة الأولى ثمّ وضع عليه مسدّسه واستلقى قليلا حتّى غلبه النّعاس فاستسلم ووهب نفسه لسلطان نومه، وأغمض عينيه وفي البال أحاديث كثيرة .

عند الصباح، حياة جديدة، سكينة ونسمة خفيفة تنحت بدايات نهار يحمل في عمقه إشارة تنبئ بيوم صقيع. أفلت عقال نظرة، فرآها. ابتسم لها، كانت صادقة حينها ليست مراوغة، أفلتت بدورها ضحكات في ثناياها رسائل عديدة. تودّدت لنفسها أن تظلّ مكانها كي تتمتّع برفقة صغيرة خاطفة. تطيل

النظـر فـإذ بـه يسـرع الخطـى نحـو بابـه، ثـمّ بابها فيدقّ ثاني فصول الحكاية قائلا:

-أنقول صباحا...

-" تبدو مختصرة."

-ربما لأنّي عسكري.

-" وهل يعدّ ذلك سببا."

-غالبا.

-" حسنا، صباحا."

-ماذا بعد؟

-" أكتفـي بـذلك، فهـذا مـا عنـدي، وإنّـك المبادر بالحديث."

-أرضـى بـذلك، (يصـمت قلـيلا ثـمّ يواصـل كلامه) هل لي بكلمة؟

-" تعيد تلك الكلمة أم تأتي بغيرها؟"

-بل بغيرها، هي كلمة واحدة.

-" مثل المرة السابقة!"

-غير المعنى ذاته

-" قلت كلمة. أوجز "

-وماذا لو وقرت قلبك.

-" خرّ لك شاكرا."

-وإن بدت لك قاسية.

-" أفزع وأطلق صيحات. تفضل هات ما عندك لعلّك تفلح فلا أغادر مكاني هذه المرة."

يفتح عينيه بعد أن أغمضهما، ويغازل شفتاها كي يستميلها بقول فيه أعذب الكلمات، يطقطق أصابعه وينطق قائلا:

-تتزوّجيني؟

تصاب بذهول وتتحنّط مكانها، تصمت قليلا ثم تبتسم، بعدها تنصرف كعادتها مسرعة.

تقف عند الباب وتومئ برأسها لتعلمه بقبولها ثم تتخفّى خلف ستارة شفّافة لترقب حبيبها وفي عينيها سعادة بحجم الكون .

يغادر بدوره قاصدا وجهته إلى عمله وفي ذهنه قصائد العشّاق يردّدها. يتلقّى التّحايا من كل حدب وصوب وهو يلبس بدلته العسكريّة، يسير ويتأمّل طريقه كي يعتاد عليه. لقد قرّر الاستقرار هنا حيث حبيبته التي أجابته منذ حين بأنها راغبة في الزّواج. وعد النّفس أن يخطبها

عندعودتـــه مســـاء، فـــالعمر يزحـــف بقـــوّة شديدة.

ظـلّ يمشـي وفـي جرابـه الكثيـر مـن الأمـاني والأحـــلام، أصـــوات تتـــدفّق دفعـــة واحـــدة تـــؤنس طريقـــه فبـــدت كأنهـــا أطيـــاف تتـــراقص، عليهـــا حســـن دافـــق، ومنهـــا يفـــوح عطـــر ممـــزوج بطيـــب للقلـــوب خـــاطف، علـــى أســـاريرها تـــورّد يحـــدّث النّـــاظر بنقـــاوة غـــد آت فيـــه فـــرح ومســـرّة، وفـــي الشّـــفاه أغـــان عذبـــة علـــى المســـامع، بهـــا وقـــع شـــبيه كلمـــات طيبـــة تنبـــع مـــن ســـراج منيـــر علـــوّه شـــاهق. مالـــت روحـــه إلـــيهم فأســـند كيانـــه لظهـــورهم وأنـــس برفقـــة صـــغيرة تزيـــل كـــلّ كـــدر خـــانق، ســـبح وفـــي جوفـــه صـــفاء لا يعكّـــر صـــفوه ذوي الوجـــوه

النّكـــرة المتحذلقـــة الرّاكعـــة لغيـــر خالقهـــا بحثـــا عـــن ودّ تصـــنعه لحـــين. هـــو يعلمهـــا لكنّـــه يـــراوغ فقـــد خبِـــر خفايـــا العبـــاد وصـــار عارفا بأمور كثيرة .

وصـــل إلـــى عملـــه فـــإذ بتحيّـــات مـــن كـــلّ صـــوب تُرفـــع ففـــي قـــادم أيامـــه قيـــادة وثقـــل وكذا عشق أمسى يتجدّد .

اســـتفاق السّـــجين مجـــدّدا، مـــال ناحيـــة اليمـــين ليغيّـــر مرقـــده، وغـــرق فـــي خيالـــه ليعبث بدفتر ذكرياته الملتهبة...

هـــو هنـــاك عنـــد أعلـــى قمّـــة، يعتلـــي صـــخرة، بيـــده كتـــاب، وعلـــى خصـــره ســـلاح. يقتـــرب منـــه صـــاحب النظّـــارة. يبـــدو لطيفـــا، قـــدّم نفسه وأحسن التّحية ثم استقام. حدّثه:

-اجلس.

-عفوا سيدي هذا كرم منك.

-اجلس.

يجلس، ويصمت

يحادثه مجدّدا:

-أنت ابن هذه البلدة؟

-نعم، ولدت وترعرعت فيها، عشقت رملها وأنشدت عند الطفولة أولى كلمات عند تلك الأشجار العملاقة، عبرت وديانها وتسلّقت جبالها، وألفت صحبة رفاق فرّقتنا صروف الدنيا وشواغلها. غبت عنها لأعود وأنا أحمل على خصري مسدّسي وقسمي. أذود عن حدودها وأفترش حصاها وأصعد جبالها .

-أمتزوّج أنت؟

-ليس بعد ."

-لا ترغب في الزّواج؟

-بل أرغب لكنّ الوقت لم يحن بعد، لي هدف وبعده زواج ."

-ربما ستكون منذ اليوم رفيقي.

-عفوا أنت قائدي."

-وهل يُمنع القائد من أن يختار لنفسه رفيقا.

-لا... لا مانع في أن يصنع لنفسه صحبة."

-إذن نلتقي مساء يا صاحبي، يا صاحب النظّارة (يقولها وضحكات لطيفة تحرّك شفتيه.)

ينصرف صاحبه ليظلّ حيث هو يراقب وفي عينيه طيف ظلّ عالقا منذ

الصباح،إنّها فاتنته، غزت قلبه وأوثقت عقاله، وأحكمت نسج خيوط رحلة قادمة.

طوى سويعات وهو يجلس جلسته الأولى بين شرود وحلم، ولحظات عودة عند حصنه المنيع يتتبّع أثر زائر متطفّل يرغب في السطو أو العبور إلى الضفّة المقابلة. وقف واستدار فأدرك أنّ زمن مكوثه قد قارب على الانتهاء، وأنّ لحظات العودة حيث كيانه قد بدأت تناديه ليمتطي خطواته على مهل. يترجّل دون عجلة، به هيبة ووقار، وبداخله حذر شديد. ينادي إلى صاحبه صاحب النظّارة لينعم برفقة يراها ناعمة.

في طريق العودة كان يحادثه عن حاله وترحاله، وعن صباه وشبابه، وعن كيانه الحالم، يقف أحيانا ويلقي بسؤال لا يدرك صاحبه معناه. أمسك عن الكلام لبرهة، ثم ردّد قائلا:

-أتعلم صديقي معنى أن تحرس أرضا؟ يعني أن تراها تنبت زرعا، وتأوي طيرا، وتُعيل يتيما، وترفأ بعجوز مسنّ وتترفّق بطفل بريء حالم، وتطعم ضعيفا. تحرسها فتبعث فيها حياة وأملا، وتكتب على اللّوح أنّها العرض والمنشأ، وأنّها الملاذ والمسكن، وأنّها السكن والمدفن، روحنا معلّقة فإن طلبت نلبّي، وإن نادت نردّد لتسمع فتتكلّم الأرض من تحتنا وتُسمع. فكن أنت كما خُلقت على هيئتك

الأولى وبفطرتك الأولى، ولا تقبل سوى أن تكون خلف المدفع، وترفّق بحالك ففي الوادي أفاع تسعى في جرابها سموم وبها أنياب تقطع، وحاذر من غدر النفس، فإن أطعتها ضعت وغبت في زحام الغيّ، وثق أنّك عن طريقك لن ترجع. فهل تغدر؟

-لا قطعا لا أغدر، لي في المنازل أحبّة وإنّي سليل عروق طيّبة لا تقول غير صدق المقال، فطب خاطرا وإنّي منذ اليوم شقيق ورفيق سلاح فكن على يقين أنّي لا أغدر .

ترافقا حتى فرّقتهما أنهج ضيّقة فأخذ كلّ منهما طريقا حيث منزله، واصل مسيره وهو يدندن ويردّد كلمات عذبة عن غد

آت حتى دنا من بيته فألقى بنظرة، فإذ بكيانه يُشعّ يُطلّ ليرمي بابتسامة صارت مثل جرعة دواء تُصرف في ميقات معلوم.

يأخذ جرعته ويدخل منزله فيتمدّد،ويغمض عينيه مبتسما شبيه شاب في بداية حياته يعيش مراهقته الأولى .

يستفيق السّجين على وقع دبيب، هو السجّان يضع أمامه وجبة منتصف النّهار، لمزه، وأكثر تحريكه ليستقيم جالسا فيسلّم هوى نفسه لوجبة تبدو دسمة، ينزع عنه تلك الهموم لبرهة، ويُسكت داخله عذابات سنين فقد تاقت غريزته لأن يقضم الطّبق فينطقه من

شدّة وجعه، يفعل ذلك وهو يلفظ أنفاسه كأنّه يترجّى آخر لحظات عمره حتّى يُنهي، فيسند جسده إلى جدار الزنزانة وهو يجول في ثناياها ففي كلّ ركن ذكرى ورسالة .

لم يعد يقوى على الحراك، ولا عن الكلام. يكتفي بالنّظر فإذ بالزّائر البغيض يستبيح المكان مجدّدا، صاحبه، صاحب النظّارة يحلّ من جديد. يضحك بسخريته المعتادة ثم يجلس بمحاذاته ويحدّثه قائلا:

-أتدري صديقي، هي وجبة دسمة من يد بارعة، كأنّك تجلس على أريكتك عند زاوية الدّار، هي هناك لم تبرح مكانها

لكنهـــا لا تنتظـــر عودتـــك. لقـــد أكلـــت مـــن طعامها .

يعتصـــر ألمـــه ويخفـــي نحيبـــه فـــي جوفـــه، ثـــم يلتفـــت إلـــى حـــائط أصـــمّ ويتظـــاهر بـــالنوم فينصـــرف الضـــيف الثقيـــل وقهقهـــة تتـــردّد تاركة صدى أصوات مزعجة مقيتة.

يعـــود بـــه الـــزّمن إلـــى حيـــث البـــدايات، هـــو هنـــاك عنـــد الجـــدار الفاصـــل بـــين المنـــزلين يترقّـــب عـــودة العـــمّ، لباســـه أنيـــق، ورائحـــة عطـــره تفـــوح فترســـل طيبـــا لروحـــه النّابضـــة الجالســـة عنـــد شـــجرة الصّفصـــاف العتيقـــة، ومـــن هنـــاك العـــمّ قـــادم علـــى مهـــل. يصـــل ويجلـــس علـــى الأريكـــة خارجـــا، ويلـــوّح بيـــده مشـــيرا إلـــى ابريـــق الشـــاي فقـــد اعتـــاد احتســـاء كـــأس قبـــل زمـــن القيلولـــة. نظـــر

الشّـــاب الفتـــي إليـــه وانتظـــر لبرهـــة ثـــمّ طـــرق البـــاب برفـــق فـــأذن لـــه الشـــيخ بالـــدخول، يلقـــي التّحيـــة فيـــردّ العـــمّ وعلـــى وجنتيـــه ابتســـامة، وقســـمات وجهـــه تُظهـــر إحساســـا بفخـــر كبيـــر، فهـــو عســـكري لـــه هيبتـــه ووقـــاره، ولـــه مكانـــة فـــي قلـــوب متســـاكني البلـــدة. يطلـــب منـــه الجلـــوس فـــيجلس، يـــومئ لابنتـــه فتغيـــب قلـــيلا لترجـــع وهـــي محمّلـــة بواجـــب الضّـــيافة، لتنصـــرف مجـــدّدا. بـــدت الجلســـة متـــوتّرة فكلمـــات الشّـــاب مختفيـــة، أحيانـــا تخـــرج ثقيلـــة متلعثمـــة، فـــأدرك الشّـــيخ بفطنـــة السّـــنين أنّ فـــي الزّيـــارة طلبـــا، وقبـــل الطّلـــب لا يبـــدو للخطـــاب معنـــى ففيـــه حشـــو مـــن الكـــلام لـــم

يعتـــد عليـــه. نظـــر الشـــيخ لوجـــه الشـــاب وقال:

-"دعنـــي أخمّـــن، أهـــي زيـــارة جـــار أم ابـــن بار؟ "

أيّ براعـــة وأي فطنـــة، لقـــد أوجـــز الشـــيخ وقصّر المسافات فردّ الشاب على عجل:

-بل ابن بار.

-"مرحـــى، حللـــت أهـــلا. هـــل لـــك فـــي أرضـــنا رغبـــة فـــي الاســـتقرار أم راحـــل بعـــد مكوث؟"

-بل ستكون المأوى والمستقر .

-"أنـــت فـــرد بيننـــا، فهـــل لـــك فـــي الـــدنيا عائلـــة عليهـــا تســـند عضـــدك أم ينبـــت لـــك عضـــد إن أنت دنوت منّا ونحن دنونا منك؟"

-هي الثانية، فأنا كفرادة تلك الشجرة.

-"لقد زوّجتك إيّاها ."

احمـــرّ خجـــلا، وردّ بقـــول حســـن، ارتســـمت علـــى محيّـــاه ســـعادة يكتبهـــا بـــوميض عـــين لامعـــة، ثـــم يُخـــرج كلامـــا يشـــبه النّثـــر ومـــن بعده يوجز في الكلام فيقول:

-قبلـــت، وتوكّلـــت، وإنّـــي علـــى العهـــد مـــا دامت في عروقي نبض. فمتى وكيف؟

-"الآن إن أردت، أو غـــــــدا إن عزمـــــــت، فخير هذا الأمر في عاجله ."

-أفعل، وإنّي لها سند وظهر .

يطلـــب الإذن ليغـــادر وفـــي قلبـــه وقـــر، وفـــي عينيـــه ســـحر، وداخـــل وجدانـــه عشـــق راح يتمدّد .

تمـــرّ الأيـــام حلـــوة المـــذاق، كثيـــرة الـــودّ، هـــي اليـــــوم عروســـــه، برفقتهـــــا تبـــــدأ

الحكايـــــــة،تتحرّك بداخلـــــــه دواليبـــــــه المعطّلـــة،وتنطلق عجلـــة الـــزّمن فـــي العـــدّ، لقـــد ودّع الوحـــدة وأزاحهـــا، تزوّجهـــا وأخـــذ مـــن حبيبتـــه ســـلوى، أســـرّت لـــه بســـرّها، فباحـــت بعشـــقها لـــه، وزادت عليـــه كـــرم حـــين أعلنـــت أنّ فـــي الأحشـــاء نطفـــة، وأنّهـــا طيـــف مـــن أحـــلام لا تســـتكين لهـــا حركـــة، أحـــسّ بغبطـــة وســـرور، لقـــد بـــدت ملامحـــه المفقـــودة تتشـــكّل رويـــدا رويـــدا، ينتظـــر اســـتدارة بطـــن تحمـــل أوتـــار نفـــس بريئـــة، يرقبهـــا كـــي يـــرى حركـــة تنـــتفض وكأنهـــا تصافح .

تتالـــت الأيّـــام وطـــوت لياليهـــا ليُطـــلّ كيـــان صـــغير، وصـــراخ متصـــاعد يعلـــو المكـــان

فتفـــرح النفـــوس ويُضـــرب دفّ المســـرّات حتى صباح جديد .

إنّـــه يكبـــر، يحبـــو، ويســـقط، ويمشـــي خطواتـــه الأولـــى ويتعثّـــر، ويرمـــي بابتســـامته ويواريهـــا حينـــا. كلماتـــه شـــبيهة أصـــوات لا تفهـــم معانيهـــا، "كيـــان" أســـماه "كيـــان" هكـــذا أراد، يـــراه كـــذلك، هـــو جـــزء مـــن كيـــان مفقـــود، أراده مولـــودا ليعـــانق الحقيقـــة، ومولـــودا ليدغـــدغ خبايـــا النّصـــف المبتـــور فقـــد بُعـــث دون ســـند، وحيـــدا دون عضـــد، شـــريدا دون وتـــد، يتـــنفّس حرمانـــا من لدن حنون رحلت بعد ولادة .

لـــم تعـــد هنـــاك منزلـــة للحـــزن فـــي دخـــيلاء الفـــؤاد، هـــي ذي حياتـــه ســـعيدة، حلـــم وحـــبّ ولقمـــة كريمـــة، ونـــوم دون كـــوابيس

مقيتة، بقربه ما يشبه الملائكة، روحه التي تسكنه منذ سنين، وبجانبه كيانه، رديفه، نصفه النّابض. بهجة تضيء تخوم منزل صغير زادته جمالا، وأهدته قطعا من جنان خُضر تحيطه فترفع عنه كلّ قبيح .

يلاطفها يوما قائلا:

-أشتهي وجبة دسمة قرب جدول ماء دافق. بجواري ملاكي الطّاهر، وأمام ناظري عصفوري النّادر. أنشد أشعاري على وقع دبيب صوتك العذب الثائر،لهيبه يشعل في جوفي مزيدا من حطب يطربني ويزيد عشقي فتتصاعد ألسنة دافئة تحدّث أنّ في الوجدان تسكن روحا لا تشبه باقي الحرائر .

تمسك بيديه وتقبّل جبينه وتحدّثه قائلة:

-"أفعل، فأنت عين بها أصعد إلى أعالي جبال، وأعبر بها أعتى الدروب، وأنت روح تسكن الكيان تستلّ كلّ ندب، وكلّ جرح يبدو غائرا، فطب خاطرا فمنذ ساعتي أفعل ."

يستمع إلى أصوات أعيرة وضرب مزمار، فيفلت السّجين عقال نفسه ويرجئ ذكرياته القديمة لبرهة. يصعد برفق على كرسيّ متهالك لينظر من نافذة الزنزانة الصغيرة، نعم إنّه موكب عهده، كان قديما من يتقدّمه، فصار خلف القضبان يشاهده وصمت المكان يأكل منه بعض هويته المغتصبة ذات لحظات غادرة .

-من يكون الزّائر؟ (يسأل سرّا)

هـــــو هنـــــاك صـــــاحبه، صـــــاحب النظّارة،يرتـــــدي زيّـــــه الرّســـــمي المـــــزدان بنياشـــين كثيـــرة، يقـــف قبالـــة هكـــل أخـــذه العمـــر فشـــاب شـــعر رأســـه حتـــى أعـــدم كـــل ســـواده، وجـــه مـــألوف، يحـــافظ علـــى وقـــاره وهـــو يلـــبس بدلتـــه العســـكرية، فـــي الوجـــه وســـامة، وعلـــى الجبـــين علامـــة تنبـــئ بســـجيته الطيّبـــة، نعـــم هـــو قائـــده القـــديم إبّـــان رحلـــة إلـــى الشّـــرق حيـــث الجبـــال الـــوعرة، رفيـــق ســـلاح ومغـــامرة، جمعتـــه بـــه صـــداقة ومحبّـــة، رفـــع رأســـه إلـــى الأعلـــى وكأنـــه يشـــكر خالقـــه فـــاليوم فـــرج وتحـــرّر مـــن وثـــاق ومـــن زنزانـــة نجســـة. ينظـــر إلـــى الغرفـــة فـــإذ ببابهـــا موصـــد، وأقفالهـــا مغلقـــة

بشـــدّة، فيعـــود إلـــى حيـــث النافـــذة ويصـــرخ ثـــم ينـــادي رفيقـــه الطيّـــب، لكـــنّ فـــي الصـــوت إعيـــاء، يبـــدو غـــائرا لا تســـمع لـــه صـــدى يتـــردّد، تـــودّد للقـــدر أن يمنحـــه قـــوّة، وأن يعيـــد لـــه صـــوته المجلجـــل إبّـــان تـــدريب كـــان يلعـــب فيـــه دور القائـــد، غيـــر أنّ الحـــروف والكلمـــات قـــد زادت فـــي عنادهـــا فبكـــى فـــي صـــمت خشـــية أن يـــرى ذلـــك الخـــائن دمعـــة قائده تنزل ولو لمرّة .

اكتفـــى بســـماع مقـــال يتـــردّد مـــن أفـــواه صـــادقة، تشـــقّها كلمـــات نجســـة تعبـــر مـــن حلـــق صـــيّاد فـــاجر، وذئـــب غـــادر حتـــى وصـــلت إلـــى مســـامعه كلمـــات تـــرحّم علـــى شـــهيد كـــان بـــالأمس بيننـــا مخلفـــا اســـما شـــامخا نرفعـــه فـــي قلـــوب لا تكـــلّ مـــن حملـــه

أبدا، فعلم أنّه ميّت منذ زمن، وإنّه شهيد سقط عند نزال ذودا عن حرمة أرادوا هتكها. لا علم لهم أنّ شهيدهم بالزنزانة قابع يتجرّع مرارا منذ زمن لم يحسن عدّه.

تنتهي المراسم ويهدأ المكان، فلا تسمع دويا ولا أصوات رجال اعتاد خطاباتهم ولغوهم، مزاحهم وهرجهم، فأدرك أن الجمع قد انفضّ من حوله فحمل أكفّ روحه على راحتيه، وسار بها حيث الصّمت المزعج المضني، فيلفّ وجهه بيدٍ ويُسند خدّه بيدٍ. يحتدم الصّراع بداخله، حدّث النفس كي لا تنام ففي البال كثير من الحكايات تزدحم، لها رغبة في أن تخرج من سجنها القابع في

خبايـــــا الـــــنّفس الحزينـــــة ،.يحـــــدق للأعلى،ويمـــرّر بصـــره مـــن بـــين قضـــبان حديديـــة لتعبـــر إلـــى الخـــارج أيـــن تجلـــس عشـــيقته وســـط باحـــة فســـيحة تلـــبس شـــالها الزّهـــري، هـــي هنـــاك تتمنّـــى عـــودة زوجهـــا بعد رحلة أبعدته عن وليد لا يزال يتعثّر.

إنهـــا الواحـــدة، نجـــوم اللّيـــل مرصّـــعة كأنهـــا تحتفـــل، وزرقـــة ســـماء خفيفـــة تُطـــلّ مـــن تحـــت ســـتائر مـــن ضـــباب بـــديع ســـائر فـــي حركـــة نشـــطة، هـــي تنظـــر إليهـــا وكأنّهـــا تناجيهـــا، تحادثهـــا حينـــا وتُعاتبهـــا، تعـــدّ النّجمـــات وتلفـــظ بأســـماء ابتـــدعتها لتـــأنس بهـــا. لقـــد أخـــذتهم رفاقـــا لهـــا إلـــى حـــين، فوليـــدها لا يُحســـن مـــن القـــول ســـوى بكـــاء ممزوج بكلمات لا تحذق فهم معانيها .

يأتي من بين شجيرات الصّفصاف يمشي بخفّته المعهودة، يمرّ ببراعة دون أن يُحدث أصواتا مزعجة، يقف، لا شيء يحول بينهما، ويدنو فلا تحرّك ساكنا فهي لم تشعر بحركته، يتناول قنّينة عطره ويضع منها قليلا ثمّ يُقبل ويقترب، كأنّها تتحسّس رائحته، بدأت تتحرّك بعد طول ثبات، تصوّب نظراتها يمينا وشمالا، وتلوّح ببصرها إلى الأمام.

تقف وتنادي:

-"أنت هنا حبيبي! إنّي أشمّ ريحك، أم أتوهّم وأهذي. ربما طال انتظاري فخُيّل لي أنّك هنا.

تصمت قليلا ثمّ ترفع عينيها إلى الأعلى،لتستدير قليلا فتصرخ وترتمي في أحضانه باكية، ضاحكة، شاكية،شاكرة.

بدت مثل وليدة، بنت صغيرة ترقب عودة أبيها .مزّقت خدّه قبلا، وأكثرت من لكمه وضربه وشتمه، لتُنهي استنشاق عطره، عرقه، فتستلّ روحه وتسحبها إليها وتستوي. تُمسك بيديه وتجلس وتُجلسه على أرض حنون وتسرد له حكايا رحلتها صحبة كيانها، وكيف رحلت وارتحلت مجازا، وكيف رأته في منامها، وفي يقظتها. ثمّ حدّثته عن صبيّ يحمل صورته، هو شبيهه نسخة منه، ترى وجهه في عينيه حين يغفو، وحين

يبتسم، وحين ينظر إليها، ويطيل فتراه يكبر ويشتدّ عوده .

يحضنها مجدّدا ويحكي لها عن أيّامه العنيدة، وعن غربة أخذت نصفه وزادته اشتياقا. تعانقا طويلا حتّى أطلّت نسمات الصّباح الباردة المضيئة فحملها مثل صغيرة وأدخلها إلى مخدعها وعلى محيّاها فرحة مشتاق .

يطلّ الصباح لكنّه لا يبدو حالما، لقد استفاق من غيبوبته، من سرد حكاية، ومن استرداد ذكريات آفلة. بدت كلماتها مثل تعويذة، وأحداثها مجلبة لسعادة موؤده، ومأساة أحكمت نسجها شياطين كريهة. يسمع دويّ أعيرة صباحيّة، وأصوات تحيّة عهدها، تتعالى الأصوات

تنشد معزوفة في مطلعها ذكرى، فيعتصر حزنا. إنّه الميّت الحيّ، المقيم غصبا في زنزانة ضيّقة. يستمع إلى صوت الأقفال فإذ بالباب يُفتح ليقف صاحبه صاحب النظّارة مجدّدا ليُعذّبه قليلا.

يحدّثه قائلا:

_"أنا اليوم صاحب هذه القلعة، الآمر النّاهي، سيّد الكلمة الأولى وكذلك الأخيرة ."

أتدري أنا ألبسك، ألبس رتبتك، لقد أزحتك لأنك مثل حجرة عثرة تُعيق طموحي، وإنّي لازلت في صعود حتى أبلغ القمّة .

الجيب محشوّ بالمال فخلف تلك الأسلاك ثروة، هم نزلاء إلى حين فليست هذه الرّقعة بأرض مقام بل بوّابة. فكيف لا أجعل منهم غنيمة. أتتذكّر تلك الليلة! لقد كنت بارعا وأنت تصدّ تلك القافلة، كانت بدورها مدجّجة لكنّك نلت منهم فتقهقرت قليلا للوراء مكرهة، كانت بيني وبينهم مودّة. وكنت أمام ناظري فأعجبني أن تكون أنت فريستي بدلا عنهم. أصبتك في ساقك. ألم أكن بارعا؟ وسحبتك حيث الشجرة. ظننت أنّي أسندك غير أنّي ساعتها أنفّذ حكمي. حملتك ووضعتك داخل هذه الغرفة، ثمّ عدت إلى الميدان وأنا أبحث بين قتلاهم عمّن يشبه بنيتك حتّى وجدت شبيهك لأخفيه عن أنظار

الفريـــق وأرجـــع وأنـــا أحمـــل ســـلاحك. أوهمـــت الجميـــع أنّـــك أصـــبت، وأنّ أحـــدهم قـــد ســـحبك، ضـــربت نـــارا فيهـــا أعيـــرة تتعاقـــب فأســـمع صـــداها رفـــاق الســـلاح فلبّـــوا النـــداء. أخبـــرتهم أنّ قائـــدنا قـــد أُســـر، ربّمـــا استشـــهد. تتالـــت الأيـــام ونحـــن نبحـــث عمـــدا فـــي الأمـــاكن البعيـــدة عـــن تلـــك الجثّـــة . لقـــد تركتهـــا عمـــدا وأمهلتهـــا زمنـــا لتختفـــي تفاصـــيل وجهـــك، لنجـــدك عنـــد شـــجرة ظليلـــة. بكينـــا بحرقـــة وحملنـــاك إلـــى بيتـــك. أتعلـــم! لقـــد بكـــت عليـــك بحرقـــة حتّـــى أعياهـــا النّحيـــب. دفنّـــاك ومنحنـــاك وســـاما ولقـــب الشهيد .

-أتدري صديقي أنّي ألبسك !

لـم أتـزوّج لكنّـي أكفـل يتيمـا، وأعيـل أرملـة، لـم أنقطـع عـن زيارتهـا، تـودّدت لهـا كثيـرا ورجوتهـا أن تقبـل بـي زوجـا لكنهـا رفضـت غير أنّي لازلت أحاول فلا تقلق .

-انتظر قليلا.

تـوارى عـن ناظريـه ليرجـع ومعـه طفل،بـدت ملامحـه معلومـة، بـه وسـامة، وفـي عينيـه تكمـن رسـالة. ينظـر إليـه ويبادلـه النّظـر، لينصـرف بعـدها الصـبيّ ويظـلّ صـاحبه وهـو يبتسـم ابتسـامته السّاحرة.

يحدّثه قائلا :

-'هـذا صـديقي، طفلـي، لقـد وعدتـه بزيـارة خاطفـة. هـو الآن أنهـى آخـر جولاتهـا. لقـد

امتطى الحافلة ليعود إلى حضن حبيبتي المتمنّعة ."

تتغيّر ملامح وجهه ويتعرّق بشدّة ثم يصرخ .

يكلّمه مجدّدا :

-"أنت محقّ، هو ابنك، لقد كبر، هو يجهل من تكون لكنّي أعلمته أنّك خائن تبيع وطنك وأرضك من أجل حفنة من دراهم آفلة ."

يزيد صراخه، ويحتدم غضبه. لقد شعُر بأنّ للحياة جولة أخرى، وأنّه حيّ نابض، وأنّه عسكري لا يقبل الأسر فكيف صبر كلّ هذا الزّمن .

نطق بكلمة يتيمة:

-صاحبي.

انــتفض صــاحبه بشــدّة ونظــر إليــه مســتغربا وسأل:

-'أقلت صاحبي !'

يلوّح برأسه ويطلب منه أن يدنو منه .

يقتــرب منــه وهــو لا يعــي أنّ لســانه قــد نطق، وأنّ أولى كلماته ردّدت صاحبي .

اقتــرب منــه لــيجلس أمامــه يتأمّلــه، فــإذ بــه مغمــض العينــين مثــل نــائم، يحرّكــه فــإذ بحركتــه مشــلولة وكأنّــه يلفــظ أنفاســه الأخيــرة. يســحبه إلــى ركــن ثــم يلتفــت صــوب البــاب، فــإذ بحركــة يــد خفيفــة تلــفّ رقبتــه بقــوّة، أحكــم شــدّه حتــى أصــيب بإغمــاء. وســحبه إلــى ذات الــرّكن أيــن تلــك السّلاســل الحديديــة فيشــدّ وثاقــه، ويســدّ فمه كي لا يصرخ طالبا النجدة .

نـــزع زيّـــه وارتـــداه، وحمـــل ســـلاحه. فـــتح البـــاب وأطـــلّ برأســـه قلـــيلا. هـــو يعلـــم المكـــان جيّـــدا، أدقّ تفاصـــيله، تحرّكـــت فيـــه روح المحـــارب فـــراح يتـــذكّر صـــولاته، إنّـــه مثـــل الظـــلّ الخـــاطف، يتخفّـــى مثـــل طـــائر، ويزحـــف مثـــل ثعبـــان مـــاكر. يعبـــر نفقـــا يعلـــم مدخلـــه وممرّاتـــه. أكثـــر الوقـــوف فبـــات شـــبيه ذئـــب فطـــن محـــاذر. لقـــد أفلـــت، هـــو هنـــاك عنـــد منحـــدر خـــارج الأســـوار. هـــرول وزحـــف وانـــبطح عنـــد مـــرور كـــلّ زائـــر غريـــب. ابتعـــد وانتظـــر مغيـــب شـــمس بـــدت له صديقة فتستّرت عن هروبه تعاطفا .

لـــم يســـمع أعيـــرة تـــدوّي فعلـــم أنّ ســـرّ هروبـــه لا زال بـــين تلـــك الجـــدران الصـــامتة. لقـــد أحكـــم غلـــق الزنزانـــة وأطبـــق علـــى

صـــاحبه ليقبـــع فـــي ذات المكـــان يتجـــرّع ويلات خديعة .

هـــو اللّيـــل، رفيـــق الطّريـــق، ســـواد يعشـــقه يُخفـــي ظلّـــه، ويســـتر رحلتـــه. هـــو ســـائر إلـــى هـــدف معلـــوم، إلـــى رفقـــة قديمـــة عنـــد تخـــوم قريبـــة، لينـــزع عنـــه أثـــواب الجريمـــة التـــي لبســـها غصـــبا. لـــم يكبـــر كثيـــرا، حركتـــه ســـريعة نشـــيطة، وعزمـــه لا يلـــين، لقـــد رأى عنـــد الصّـــباح وجهـــا فـــتح أبـــواب الجنـــة وأوصـــد الجحـــيم. فـــأزاح وجهـــه البـــائس المهـــزوم وفيـــه مـــن الجلـــد مـــا يهـــزم بـــه كـــلّ ظالم بغيض .

يصـــل إلـــى صـــحبته القديمـــة، يقـــف عنـــد بابـــه ويطرقـــه بخفّـــة، إنّهـــا ســـاعة الفجـــر وهـــو يعلـــم أن صـــاحبه الـــوفيّ علـــى موعـــد مـــع

الحيـــاة. ينظـــر مـــن نافـــذة صـــغيرة فـــإذ بنـــور خافـــت، حركـــة لا تبـــدو متكاســـلة تـــدنو مـــن البـــــاب لتفتحـــــه. يـــــتكلمّ وحشـــــرجة فـــــي الصوت تذكّره بأيّام خلت:

-" من الطّارق؟"

-أنا

-" ومن تكون؟"

-انـــزع عنّـــي هـــذه اللّحيـــة وانظـــر إلـــى عينـــي ففي داخلها سرّي .

يقـــــرّب المصـــــباح إليـــــه ويتأمّـــــل، يبتســـــم وتدمع عيناه ويقول:

-"عبثـــا مـــا تفعـــل يـــا رجـــل، كنـــت أعلـــم أن شبيهك لا يموت ولا يستسلم ."

ينهـــي حديثـــه ويعانقـــه بشـــدّة، تنبعـــث كلمـــات عتـــــاب ولـــــوم، وتتـــــدافع أصـــــوات يعقبهـــــا

بكاء بحرارة. أخذ بيديه وطلب منه أن يسرد حكايته ففعل، وهما على ذلك حتّى الصباح .

انقشعت غيمة سواد حطّت منذ زمن على عتبات العسكري الشّريف، وأماط لحاف الشّعر الكثيف ليكشف عن وجهه القديم. ارتدى زيّا عسكريا استعاره من صديقه العتيق. سارا معا حتى بلغا مفترق الطّريق.

اتّجه صديقه الوفي صوب القيادة أين الرّفقة القديمة الصّادقة ليكشف سرّ الخديعة المؤلمة، والخيانة التي جعلت من الحيّ شهيدا، ومن الشهيد أسيرا في زنزانة نجسة. بينما توجّه العسكريّ إلى بيته أين نبضه ووجدانه.

يمتطي عربة يشعر بترنّحها، طوت مسافات لا تبدو طويلة حتى وصلت إلى آخر محطّة .نزل وفي عينيه رهبة، ورغبة، به خوف يقبع في جوف لا يقدر على طرده. وبداخله توق إلى ملاقاة حبيبة. قلبه يعتصر تدقّه مطرقة، تسحبه إلى أحداث دامية قضّاها بين جدران صمّاء فاقدة للحياة، وتسحبه إلى حيث الروح النابضة. يعبر بالقرب من ذاك المتجر ليتناول قنّينة عطره وكذلك عطرها، ويواصل دربه إلى كيانه الحالم وسط ذهول أناس ألفوا وجهه، هم على علم انّه استشهد ذات معركة، لكنّه اليوم بينهم. يبتسم لهم ويرمي بتحيّة تعوّد بها فتصمت الأفواه. لم يجرأ أحد منهم أن

يسأل عن أصل الحكاية، اكتفى الجميع بردّ التحيّة. أخذت الألسن تلوك حكايا، وتؤلّف روايات عن فقيد أخفته الحياة لبرهة، أو شبيه يأتي بعد سفر ليكفل أرملة ويتيم. لم يلتفت للوراء، ففيه من الشّوق ما تفيض به بحور ممتدّة .

يصل عند باب منزله. ماذا يرى؟ عند تلك الشّجرة طفل يلعب غير آبه بصلف الحياة ومآسيها، بالقرب منه تجلس أم حنون على كرسيّ خشبيّ وأمامها فنجان قهوة، الفنجان ذاته لم يتبدّل. كان يرافقه أينما حلّ. لعلّه ذكرى. تستمع إلى موسيقى وقعها حزين. مثل تغريد بلبل جريح فقد جناحه فعجز عن الطيران، وظلّ يراوح مكانه دون سفر. تلوح من

بعيد حالة شرود تدقّ تقاسيم وجهها. إنّها تشيخ وتهرم وهي لا تزال زهرة يانعة. يقترب ويقترب، فإذ بليلى تتحرّك من سكونها، وتخرج من شفاهها كلمة أفلتت فجأة تحدّثت قائلة :

-"من؟ إنّي أشتمّ ريح طيب، وإنّ العطر من بقايا روح صعدت للسّماء ذات ليلة غادرة.

تبكي وتضع يديها لتخفي عينيها الدّامعتين. وتعيد نسج كلماتها قائلة :

-"لقد صرت أهذي، وإنّي إلى الهلاك سائرة. لقد رحلت حبيبي وخلّفت طيفك يتعطّر، وينزل ضيفا ليرافق وحدتي ."

يقترب فتعيد السؤال:

-"من؟ "

يجيب :

-أنا شقيق الرّوح أعود بعد رحلة .

الصـــــوت صـــــوته، وكـــــذلك العطـــــر عطره،ترفـــع بصـــرها وتنظـــر للـــوراء، فـــإذ بكيـــان يقـــف بشـــموخ مثـــل عادتـــه فخـــرّت مغشـــيّا عليهـــا. حملهـــا ومـــن هنـــاك ســـارع إليهـــا طفلهـــا وفـــي وجهـــه ذهـــول، فقـــد علقـــت فـــي ذهنـــه صـــورة والـــده المعلّقـــة علـــى الحـــائط. لـــم يعلـــم أنّـــه ذلـــك السّـــجين ذات زيـــارة، فقـــد تغيّـــرت ملامحـــه عنـــدما نـــزع عنـــه بقايـــا وجـــه أخفتـــه ملامـــح تلبســـه غصبا .

يســـحب قنّينـــة عطرهـــا، ويمـــرّر قلـــيلا ليلاطـــف بهـــا أنفهـــا، فتفـــتح عينيهـــا لتجـــده أمامها.

هـو، نعـم هـو، لـم تتغيّـر ملامحـه كثيـرة. بكـت وضـحكت، وشـرقت بالـدّمع ثـم صـمتت. تبعثـرت كلماتهـا وارتعـدت فرائسـها، لكـنّ إحساسـا بـداخلها يحـدّثها أنّـه حبيبهـا. تلمـس وجهـه وتشـابك يـده،تلاطف شـعره، وتنظـر إلـى عينيـه. تحادثهمـا لـتعلم أنـه هـو ذاتـه حبيبهـا ذاك الكيان المفقود.

تحدّثه قائلة:

-"كيف؟"

يردّ :

-قصـة طويلـة، غـدر وخسّـة صـديق. سـجين أنـا رغـم أنفـي، وميّـت حـيّ، وشـهيد وأنـا أتنفّس،قبعـت فـي زنزانتـي أتجـرّع بؤسـي إلـى أن رأيـت الصـبيّ، فعلمـت أنّـه

ابنـــي. انـــتفض بـــداخلي العســـكري الـــذي لا يرضـــى بغيـــر الانتصـــار. فصـــنعت لنفســـي حيـــاة جديـــدة. ولبســـت رداء الـــذّئب المـــاكر ســـاعة الحـــرب، ونزلـــت إلـــى ســـاحة القتـــال لأفتـــك بقـــاتلي. هـــو هنـــاك فـــي تلـــك الزنزانـــة ينتظـــر حكمـــه القـــادم. خرجـــت وعبـــرت مســـالك وعـــرة، ونزلـــت بـــدار مقـــام آمنـــة لأصـــل حيـــث كيـــاني وأحلامـــي، وحيـــث مملكتـــي، أنشـــد طيفـــي وفـــي وجـــداني أمنيـــة، فوجـــدت طيفـــي وأمنيتـــي. وجـــدتك حبيبتـــي وبجانبك أمنية تكبر وتزهر .

تعانقـــا طـــويلا، وعانقـــا الطفـــل الضّـــاحك بعـــد ذهـــول، ووقفـــا وأوقفـــا الحيـــاة عنـــد تلـــك البـــدايات الســـعيدة حتّـــى صـــباح جديـــد أنشـــد

موسيقى تحية عسكرية، لتزفّ القائد إلى قلعته مجدّدا.

هو هناك يعتلي منصّة تتوّجه بوسام شرف وعزّة، وفي الأسفل صاحبه صاحب النظّارة يُجرّ خارجا وهو مكبّل بأغلال تزفّه ذليلا إلى أسفل مراتب الخسّة بعد أن باع ضميره وأرضه، وأخذ من الفلس رفيقا وصاحبا .

نغمات دافئة تعبر من مزمار صدى صوته يُسمع الأصمّ العاجز، القائد يمشي برفق صحبة زوجته رفيقة المحن، وبجواره طفل يحمل أمنيات كثيرة، ومن هناك جمهور يصفّق بقوّة، ويردّد بفخر كلمات عن العزّة والنّخوة، وعن حفظ الأرض والعرض، وعن حبّ أبديّ أمسى

يتعـــاظم، فبـــدت ليلـــى مثـــل أرض خصـــبة، والعســـكري زوجهـــا مثـــل مـــلاك مرســـل يحمـــي عتباتهـــا، والطّفـــل الوليـــد مثـــل نبـــات يُزهـــر ويُزهـــر، ويخـــرج مـــن صـــلبه ثمـــر طيّـــب يبعـــث فـــي الوجـــدان نصـــيبا مـــن حيـــاة خالدة .

العائد إلى ليلى، قصّة عشيقين الحياة أعطتهما لحظات مرحة، وأخفت عنهما الوجه الآخر المؤجّل إلى حين. اختارت ليلى رفيقها، وأحسنت الوفاء له فبات خليل الرّوح وجليسها، تحيك ثوب الخطّة المحكمة، ادّعي أنّه رفيقا غير أنّه خان ذات ليلة دامية كتب فيها موت خليل تلك الفاتنة. تمرّ الحياة تطوي أزمنتها وفي ذهن ليلى أمنية جعلتها تتشبّث بالحياة إلى حين لقاء تراه آت على مهل. وكذلك زوجها، رأى في الاستكانة فناء، فنادى